

# مكانة الفقهاء في الفكر الإسلامي

د. أبو اليزيد أبو زبير (البحر)

أستاذ الثقافة المساعد بكلية الشريعة بالكويت

## مدخل :

لعل أشهر ما يعرف عن الفقهاء في الفكر الإسلامي أنهم معنيون باستنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية ، ولذا فإن كتب طبقات الفقهاء - على اختلاف مذاهبهم - هي السجل لحياة الفقهاء وفكرهم ، ونادرا ما يكتب عنهم باستفاضة في باب آخر غير هذا الباب .

وقد حجبت هذه الفكرة - مع صحتها - فكرة أخرى لا تقل أهمية عنها هي ما قدمه الفقهاء في مجالات أخرى من ميادين الفكر الإسلامي ، وما قدموه من مواقف لإصلاح الحياة حولهم وفق منهجهم النصي والعقلي والعملی في آن واحد ، وقد أكسبتهم هذه الإسهامات مكانة خاصة بين العلماء في الفكر الإسلامي ، حتى أن لفظ العالم كان إذا أطلق انصرف إلى الفقيه - كما سيجيء إن شاء الله - كما أكسبتهم مكانة خاصة في قلوب الناس الذين يقيسون الأمور بمقدار ما يقدم لهم من خير ، وقد برز هذا في الفقهاء أكثر من غيرهم نظرا لأسباب سيجيء ذكرها وقد نتج عن هذه المكانة مظاهر فكرية وأخرى إجتماعية حفظها تاريخ الفكر كما حفظها التاريخ الإجتماعي والسياسي للمسلمين .

لهذه الأسباب وغيرها أقدم هذا البحث « مكانة الفقهاء في الفكر الإسلامي » وأدرك أنه يستتبع بحوثا أخرى يكتمل بها وينحل الموقف من خلال جميعها ، وأقرر أن هذا البحث مدخل لدراسات أرجوا الله أن يهيئني لها ، وأن يعينني على إنجازها ، تجلية لحقائق فكرنا الإسلامي المنبثق من النص الإسلامي والمحتكم إليه ، وإظهار الحق أحق أن يتبع في باب إنصاف علمائنا وإقذارهم حقهم .  
والله من وراء القصد .

### مكانة الفقهاء في الفكر الإسلامى :

بدءاً نقرر أن الصلة وثيقة بين مكانة الفقهاء الإجتماعية التى تجعلهم موضوع ثقة الناس ، وبين مكانتهم الفكرية التى تجعلهم موضع ثقة أهل العلم وأرباب النظر ، والارتباط هنا أت من أن قلوب العامة ارتبطت بالفقهاء لما أحسوه من حرصهم عليهم وتعليمهم إياهم ما يجب أن يكون عليه المسلم فى عقيدته وعبادته لله ومعاملاته وآدابه ، كل ذلك بأسلوب عملى وقريب من طبيعة تفكير العامة ، وهذا العمل ذاته هو الذى جعل الفقهاء أصحاب إسهام علمى فى نظر أهل العلم ، فكأن جهودهم العلمية نتاج ممارسة عملية ترتبط بالواقع وتنأى عن الخيال والتجريد .

ولهذه المكانة مظاهرها التى تشهد بها ، كما أن لها أسبابها التى أدت إليها .

### أسباب مكانة الفقهاء :

يمكن أن نركز على الأسباب الآتية :

أولاً : موافقهم من الحكام نصرة للحق وتوجيهها للحياة الإسلامية .

ولقد امتحن الفقهاء من جراء هذا الموقف بالصعب والأذى لكنهم ما لانوا جهاداً وإحتساباً ، وتاريخ الفكر الإسلامى يسجل هذه المحن بظروفها ونتائجها سبباً من أسباب بقائهم فى القلوب والعقول فى آن معا ، وهذه مجرد أمثلة تشهد لما نذهب إليه .

### محنة أبى حنيفة ( ت ١٥٠ هـ ) :

امتنح الإمام أبو حنيفة بالمكائد من مخالفيه فى رأى كما امتحن من الأمراء والخلفاء لمخالفته إياهم فى سياستهم للناس ، وهذا يعيننا فى هذا الصدد .

ففى عهد الأمويين امتحن حين شعروا بأن له ولاء للعلويين ربما دفعه لبيان مثالب ومظالم الحكم الأموى ، ويروى المكى هذه المحنة فيقول : « كان ابن هبيرة والياً بالكوفة زمان بنى أمية ، فظهرت الفتن فى العراق فجمع فقهاء العراق ببابه ، فيهم ابن أبى ليلى وابن شبرمة وداود بن أبى هند فولى كل واحد منهم صدرأ من عمله وأرسل إلى أبى حنيفة فأراد أن يجعل الخاتم فى يده ، ولا ينفذ كتاب إلا من تحت يد أبى حنيفة ، ولا يخرج من بيت المال شىء إلا من تحت يد أبى حنيفة ، فامتنع أبوحنيفة ، فحلف ابن هبيرة إن لم يقبل أن يضر به ،

فقال له الفقهاء : إنا ننشدك الله أن تهلك نفسك ، فإننا إخوانك وكلنا كاره لهذا الأمر ولم نجد بدا من ذلك . فقال أبو حنيفة : لو أرادني أن أعد أبواب مسجد واسط لم أدخل في ذلك . فكيف وهو يريد مني أن يكتب دم رجل يضرب عنقه وأختم أنا على ذلك الكتاب ، فوالله لا أدخل في ذلك أبدا ، فقال ابن أبي ليلى : دعوا صاحبكم فهم المصيب وغيره المخطيء فحبسه صاحب الشرطة ، وضربه أياما متتالية ، فجاء الضارب إلى ابن هبيرة وقال له : إن الرجل ميت ، فقال ابن هبيرة : قل له تخرجنا من يميننا ، فسأله فقال : لو سألى أن أعد له أبواب المسجد ما فعلت . ثم اجتمع الضارب مع ابن هبيرة فقال : ألا ناصح لهذا المحبوس أن يستأجلني فأوجهه ؟ فأخبر أبو حنيفة بذلك ، فقال دعوني استسر إخواني والنظر في ذلك ، فأمر ابن هبيرة بتخليه سبيله ، فركب دوابه ، وهرب إلى مكة وكان هذا في سنة مائة وثلاثين ، فأقام بمكة حتى صارت الخلافة للعباسيين . فقدم أبو حنيفة الكوفة في زمن أبي جعفر المنصور<sup>(١)</sup> .

وقد وضع من رواية المكي إن امتناع أبي حنيفة كان تأييدا على السقوط أو حتى التقية التي أخذ بها بعض العلماء آنذاك ، كما وضع صبره وجهاده من أجل ما يدين به من الحق ، كما ثبت قدره ومكانته حيث تمتنى ابن هبيرة أن يقبل له عملا ليضمن ولاءه ، فإن لم يكن فالأمر صعب وقد تورط في قسم وحبس أبا حنيفة وضربه مما جعله يتمنى لأمره مخرجا<sup>(٢)</sup> .

وجدير بالذكر أن أبا حنيفة قد امتحن امتحانا أشد وألم في دولة العباسيين ، وإن كان قد أبدى بعض الارتياح لها أول الأمر كما تدل خطبته نائبا عن العلماء أمام أبى العباس السفاح<sup>(٣)</sup> ، ذلك أنه حدث ما يجعله يجهر برأى يعتقد الحق ، وهو منير لغضب العباسيين وبخاصة أبو جعفر المنصور ، وتبدأ خيوط المحنة التي توفي بعدها أبو حنيفة من يوم أن بدأت تقمته على العباسيين انتصارا لأبناء على ، وبدأ ذلك كلمات تنائر في حلقة الدرس ، ويعلم بها المنصور لكنه يغض الطرف أملا في أن لا يزيد الأمر عن هذا ، لكن أبا حنيفة خطابا لأمر خطوات ما كان للمنصور أن يغض الطرف عنها ، فقد خرج محمد النفس الزكية بالمدينة على أبي جعفر المنصور سنة ١٤٥ هـ . ويروى أن مالكا أقمى بجواز الخروج مع محمد « فقبل له :

١ - مناقب أبي حنيفة للمكي ٢٣/١ ، ٢٤ .

٢ - أبو زهرة / أبو حنيفة / ٣٥ - ٣٦ إلهام الفكر العربي د س ا

٣ - المناقب للمكي ١٥١/٢

إن في اعتناقنا بيعة للمنصور ، فقال إنما كنتم مكرهين وليس لمكره بيعة ، فبايعه الناس عند ذلك على قول مالك ، ولزم مالك بيته «<sup>(٤)</sup> أما أبو حنيفة فقد كان موقفه أشد ، فقد كان يجهر بمناصرة محمد بن عبد الله النفس الزكية في دروسه ، بل وصل الأمر إلى أن ثبت أحد قواد المنصور عن الخروج لحرب محمد النفس الزكية<sup>(٥)</sup> وحاول أبو جعفر أن يختبر ولاء أبي حنيفة فأراد أن يقبل القضاء فامتنع . لكنه أدرك نية المنصور فقبل أن يعد حجارة بناء بغداد ليبريحين أبي جعفر المنصور كما تدل الروايات<sup>(٦)</sup> لكن أبا جعفر لم يطمئن لأبي حنيفة ، ولم يكف أبو حنيفة عن قول الحق ، فحين سئل في أهل الموصل وكانوا قد شرطوا لأبي جعفر أن تحل دماؤهم إذا خرجوا على بيعته - وكان قد سبقه فقهاء أهلوا للمنصور دماءهم إلا أن يعفوا ، قال أبو حنيفة للمنصور - إنهم شرطوا لك مالا يملكونه ، وشرطت عليهم ما ليس لك لأن دم المسلم لا يحل إلا بأحد معان ثلاثة ، فإن أخذتهم أخذت بما لا يحل وشرط الله أحق أن توفي به ، فأمرهم المنصور بالقيام ففارقوا ثم دعاه وقال : يا شيخ القول ما قلت ، انصرف إلى بلادك ، ولانفت الناس بما هوشين على إمامك فتبسط أيدي الخوارج<sup>(٧)</sup> »

كذلك فإن أبا حنيفة رد عطاء وكان عشرة آلاف درهم وجارية ، محتجا بأن المال من بيت مال المسلمين وليس له حق في ذلك ، واعتذر عن الجارية بضعفه وعدم رغبته في بيعها ، وقد ساعد أبا حنيفة ذكاؤه في أن يجهر بالحق وإن بدا كأنه لا يعنى مناوأة السلطان ، ففي تاريخ بغداد « أن أبا العباس الطوسي كان سبىء الرأي في أبي حنيفة ، وكان أبو حنيفة يعرف ذلك ، فدخل أبو حنيفة على أبي جعفر ، وكثر الناس ، فقال الطوسي : اليوم أقتل أبا حنيفة فأقبل عليه ، فقال : يا أبا حنيفة إن أمير المؤمنين يأمر الرجل منا بضرب عنق الرجل ، لا يدري ما هو ، أيسعه أن يضرب عنقه ؟ فقال : يا أبا العباس : أمير المؤمنين يأمر بالحق أم بالباطل ؟ قال : بالحق . قال : أنفذ الحق حيث كان ولا تسئل عنه ، ثم قال أبو حنيفة لمن قرب منه : إن هذا أراد أن يوثقني فربطته<sup>(٨)</sup> » .

٤ - ابن كثير / البداية والنهاية / ٨٤/١ .

٥ - أبو زهرة / أبو حنيفة / ٤٠ .

٦ - تاريخ ابن كثير / ٩٧/١٠ .

٧ - مناقب أبي حنيفة لابن البرزقي / ١٧/٢ .

٨ - تاريخ بغداد / ٣٦٦/١٣ .

ولقد اتخذ المنصور من مواقف أبى حنيفة هذه وغيرها مما هو مفصل في كتب التاريخ ، اتخذ منها ذريعة للنيل منه وحبسه وضربه أسواطاً تجاوزت المائة وسجن وضيق عليه حتى مات ولانتبغ هنا أختلاف الروايات في نهايته ، ولكن حسبنا أن نذكر أن أبا حنيفة لم يتخذ الحيلة مخرجاً، فكان يجأر بالحق غير مبال بالنتائج، بل مترقبها محتملاً صبوراً، فهو يرفض القضاء ويرفض الإفتاء من غير تحايل ، ويصرح بأن رفض العطاء لأنه من بيت مال المسلمين ، وما كان ذلك يحل له ،... لأنه احتسب الأمر وأشرف فيه على النهاية ، والله يتولى الجزاء<sup>(٩)</sup> ولم تخرجه المحنة عن حرصه على الحق ، فهو يوصى - وهو يحتضر - بأن يدفن في أرض طيبة لم يجز عليها غصب ، وألا يدفن في أرض قد اتهم الأمير بأنه غصبها ، حتى يروى أن أبا جعفر عندما علم ذلك قال : « من يعذرني من أبى حنيفة حياً وميتاً »<sup>(١٠)</sup> .

#### محنة مالك (ت ١٧٩ هـ)

عاش مالك بن أنس في نهاية الدولة الأموية وجزءاً من العصر العباسي ، وقدر له أن يرى فتناً أحدثت من المظالم ما يفوق ظلم الحاكم المستبد ، كما أن نظام الحكم في عصره لم يكن هو الذي يراه مالك محققاً للعدل ، منتصفاً للناس « وقد سئل في أول العصر العباسي عن الخروج مع الخارجين على الدولة : أيقاتلون معهم أم مع الخليفة ؟ فقال : إن خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز فقاتلهم وإلا فدعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ، ثم ينتقم من كليهما »<sup>(١١)</sup> » ولقد كان فهم الإمام مالك لواقع الأمة آنذاك فيها واقعياً شاركة فيه أكثر الفقهاء حيث ربطوا بين استبداد الحاكم وحال الشعب إذ لا يستبد حاكم في شعب عادل مع نفسه ومع غيره ، يفهم ماله وما عليه من واجب النصح والتوجيه ، ورأوا أن العلاج لا يكون بالخروج ، ولكن بتغيير المنكر أمراً للحاكم بالمعروف ، وتوعية للشعب ، ونهوضاً به من خنوعه وجهله بما له وما عليه<sup>(١٢)</sup> .

وترتب على هذا أن كان مالك بن أنس رضى الله عنه ممن لا يخوضون في السياسة ،

٩ - أبو زهرة / أبوحنيفة / ٥١ .

١٠ - السابق / ٥٣ .

١١ - أبو زهرة / تاريخ المذاهب الإسلامية / ٢٠٣/٢ (دار الفكر العربي د . ت)

١٢ - السابق / ٢٠٤/٢

ولا يحرض على الثورة ، ولا يرضى عن الفتن ، لكنه ما كان يألو جهدا في نصيح للخلفاء والولاة<sup>(١٣)</sup> وقد يظن أن موقفا كهذا يبعد صاحبه عن سطوة السلطان ، ولا يعرضه لمحنة ما ، ولكن الحقيقة غير هذا ، فقد امتحن مالك رضى الله عنه وهو يقدم العلم ويربى ضمير الأمة ولئن بدا الأمر مجرد حديث حدث به أو فتوى أجاب بها فإن الحاكم فهم من الأمر غير هذا وفسره بما يدين ما لكا رضى الله عنه من وجهة نظر الحاكم وحسه السياسى الخاص .

● وقد ذكر المؤرخون أسبابا للمحنة فند بعض الباحثين بعضها ورجح سببا واحدا نوافقه عليه لأنه المتسق مع سياق الحوادث التاريخية آنذاك ، مما يجعلنا نفرده بالذكر هنا<sup>(١٤)</sup> « حدثنا أحمد بن إسحاق ثنا أبو بكر بن محمد بن أحمد بن راشد قال : سمعت أبا داود يقول : ضرب جعفر بن سليمان مالك بن أنس في طلاق المكره ، وحكى لى بعض أصحاب ابن وهب عن ابن وهب أن مالكا لما ضرب حلق وحمل على بعير فقيل له : ناد على نفسك . قال فقال : ألا من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا مالك بن أنس بن أبى عامر الأصبحى ، وأنا أقول طلاق المكره ليس بشيء ، قال فبلغ جعفر بن سليمان أنه ينادى على نفسه بذلك فقال : أدركوه أنزلوه .

حدثنا أبو محمد بن حبان ، ثنا محمد بن أحمد بن عمرو ، ثنا عبد الله بن أحمد بن كليب عن الفضل بن زياد القطان قال سألت أحمد بن حنبل : من ضرب مالك بن أنس ؟ قال ضربه بعض الولاة لا أدرى من هو ، إنما ضربه في طلاق المكره ، كان لا يميزه فضربه لذلك<sup>(١٥)</sup> . ويتفق ما ذكره أبو نعيم مع المشهور الموثق من أن مالكا كان يحدث بحديث « ليس على مستكره طلاق » في وقت خروج محمد بن عبد الله بن حسن النفس الزكية على الدولة العباسية ووجدالواشون وأعداء الحق فيه فرصة ليقنعوا المنصور أن هذا يفهم منه جواز الخروج من بيعته ، ويروى أن المنصور نهى مالكا عن التحديث بهذا الحديث ، بل دس عليه من يسأله عنه ، وبالطبع أجاب مالك بما يعتقد أنه الحق على رؤس الأشهاد .

وقد ربط ابن جرير الطبرى في تاريخه وابن كثير في البداية والنهاية بين هذا الحديث وهذه

---

١٣ - أبو زهرة /مالك/ ٥٩ .

١٤ - لمزيد من التفصيل انظر /أبو زهرة/مالك/ ٦٠-٦٤ . تاريخ المذاهب /٢٠٣/٢٠٧ .

١٥ - أبو نعيم الأصبهاني /الحلية/ ٣١٦/٦ .

الفتوى وبين فهم الناس جواز الخروج من بيعة المنصور ، بل دويا ان مالكا أفتى الناس بمبايعة محمد النفس الزكية ، ولما قيل له إن في أعناقنا بيعة للمنصور . قال إنما كنتم مكرهين وليس لمكره بيعه ، فبايعه (أى محمد النفس الزكية) الناس عند ذلك عن قول مالك ، ولزم مالك بيته « (١٦)

ويرى الشيخ أبوزهرة إن هذا الحديث وما ارتبط به من فهم أو فتوى هو السبب الحقيقى للمحنة لكنه لا يرى في هذا دعوة للخروج على السلطان من مالك لأنه لزم بيته كيلا يخوض في الفتنة (١٧) . ونحن وإن كنا نوافق الشيخ أبا زهرة على أن هذا هو منهج مالك في السياسة فإننا نرى أنه لا يستبعد أن يكون مالك يقصد بهذا إلى التغيير عن طريق تكوين الرأى العام الواعى بحقيقة ماله وما عليه ، وتلك مهمة العلماء حتى الذين لا يرون الخوض في الفتن .

● على أية حال لم يتوقف مالك عن التحديث بالحديث السابق لأنه رأى أن هذا يدخل في باب كتان العلم (١٨) وإن اختلف نظر الوالى وأبو جعفر من ورائه إلى هذا الأمر .

أما المحنة فكانت أن ضرب بالسياط ، وأن مدت يده حتى انخلعت كتفه (١٩)

وسواء أوقع المحنة جعفر بن سليمان والى المدينة من نفسه أم بايعاز من المنصور وإن تستر خلف وإليه فإن النتيجة واحدة ، أمتحن مالك لقوله الحق مستندا إلى نص ، وتعليمه الناس أمور دينهم جوابا عن سؤال ، لكن السلطان الذى يفضل الحكم على الحق يؤول أداء العالم لرسالته إلى تحريض ضده ودعوة للخروج عليه ، أما أثر هذه المحنة على الناس ففرجته إلى مكان آخر نجمع فيه الآثار كلها ونفسرها من واقع التاريخ وسياق الوقائع .

محنة الشافعى (توفى ٢٠٤ هـ) :

تعرض الشافعى لمواقف حرجه نفعه فيها علمه وفضله منها ما يذكره صاحب المناقب :

١٦ - ابن كثير / البداية والنهاية / ٨٤/١ .

١٧ - تاريخ الطبرى / ٨٤/١٠ .

١٨ - أبوزهرة / مالك / ٦٣ .

١٩ - أبو زهرة / تاريخ المذاهب / ٢٠٦/٢ .

وأنظر / أبو حاتم الرازى / مناقب الشافعى وأدابه / ٢٠٣ ، ٢٠٤ تحقيق الشيخ عبد الغنى عبد الخالق (الطبعة الأولى / مكتبة التراث الاسلامى - حلب - د ت)



« أخبرنا أبو الحسن أخبرنا أبو محمد ، حدثنا أحمد بن عثمان النحوي النسوي ، قال : سمعت أبا محمد ، قرين الشافعي ، قال : سمعت إبراهيم بن محمد الشافعي يقول : « حبس الشافعي مع قوم من الشيعة - بسبب التشيع - فوجه إلى يوما فقال لى : أدع فلانا المعبر ، فدعوت له ، فقال : رأيت البارحة كأنى مصلوب على قناة مع على بن أبى طالب عليه السلام ، فقال له : إن صدقت رؤياك شُهرت وذُكرت ، وانتشر أمرك »

قال : ثم حمل إلى الرشيد معهم فكلمه ببعض ماخليه به فخلى عنه (٢٠) »

ومنها ما يذكره أبو نعيم من ذهابه إلى اليمن بعد موت مالك رحمه الله ، وهناك وجد خارجيا خرج على هارون الرشيد ، وطعن الشافعي على الخارجى حتى أحضره وهم بقتله ، ثم لما عرف فضله وعلمه عفا عنه ، وعرض عليه قضاء اليمن ، فامتنع الشافعي ، لكنه حدث أن قبض على الخارجى والشافعي وأحضرا إلى الرشيد ، وأمر بقتلها ، فاستمهل الشافعي وقص عليه حقيقة الأمر بلغة وأدب جعل الرشيد يدعوه بأن يكثر الله فى أهل بيته مثل الشافعي ، وكانت تلك بداية لقائه بصاحب أبى حنيفة محمد بن الحسن (٢١) .

لكن أبرز ما أمتحن فيه موقفان نتيجة لجهره بالحق : أولهما يوم « أن وردت مسألة من هارون الرشيد يدعو الناس إليها ، وقد استكنهما الفقهاء فأجابوه » إلى ذلك وقبلوها منه طوعا منهم أوكرها ، فجىء بالمسألة إلى الشافعي فلما نظر فيها قال : غفل الله أمير المؤمنين عن الحق ، وأخطأ المسير عليه بهذا ، وحق الله علينا أوجب من حق أمير المؤمنين ، وهذا خلاف ما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخلاف ما اعتقدته الأئمة والخلف .

فكتب بذلك إلى هارون ، فكتب فى حمله مقيدا « (٢٢) » وروى أبو نعيم أن الرشيد قال لمحمد بن الحسن وبشر المريس : هذا القرشى الذى خالفنا فى مسألتنا جاء مقيدا إلى دارنا ، وطلب رأيها فيه ، فقالا غير الصواب ، ثم كانت مناظرة بينه وبين بشر المريس حول قضايا عقدية أفحم الشافعي فيها بشرا وجعل الرشيد بقره من مجلسه وكأنه يعتذر إليه عما حدث .

---

٢٠ - السابق ٧٨/ ، والحلية ١٢٥/٩ .

٢١ - الحلية ٨١/٩ .

٢٢ - السابق ٨٢/٩ .

أما الموقف الثاني وهو ما يتعارف على أنه أقوى محنة للشافعي فسببه حرص الشافعي على العدل ونصح الوالي بالحق ، فقد ذهب إلى اليمن ، في نجران - وكان قد عمل بها واليا أقام العدل وقضى على المصانعة والنفاق<sup>(٢٣)</sup> - وبها وال غشوم ، منعه الشافعي من ظلمه ، وربما نقده بلسانه ، فأضمر الوالي هذا الأمر ، وكاد للشافعي من ناحية ضعف في خلفاء بنى العباس حيث كانوا يعتبرون خصومهم الأقوياء العلويين بحكم أن لهم من النسب مثل ما لبنى العباس ، اتهم الوالي الشافعي بأنه مع العلوية ، فأرسل إلى الرشيد إن تسعة من العلويين تحركوا ، ثم قال في كتابه : إنني أخاف أن يخرجوا ، وإن ها هنا رجلا من ولد شافع المطلبى لا أمر لى معه ولا نهى ، وفي بعض الروايات أنه قال في الشافعي : يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه المقاتل بسيفه ، فأرسل الرشيد أن يحضر أولئك النفر التسعة ومعهم الشافعي<sup>(٢٤)</sup> .

لكن الشافعي نجا بقوة حجته حيث قال : يا أمير المؤمنين ما تقول في رجلين أحدهما يرانى أخاه والآخر يرانى عبده ، أيها أحب إلى ؟ قال الذى يراه أخاه . قال فذاك أنت يا أمير المؤمنين إنكم ولد العباس ، وهو ولد على ، ونحن بنوا المطلب ، فأنتم ولد العباس تروننا إخوانكم ، وهم يروننا عبيدهم .

ولعل الشافعي يقصد بذلك ما يدعيه المتشيعون على العلويين والإفالحقيقة غير ذلك<sup>(٢٥)</sup> كما كان لشهادة محمد بن الحسن وقد كان في مجلس الرشيد أثرها إذا استشهد به الشافعي فشهد له بالعلم لأنه ربما كان يعرفه من مجلس مالك قبل موته رحمة الله عليه .

وسواء قدم الشافعي من اليمن أم من مكة كما تذكر بعض الروايات فإن النتيجة واحدة ، بل إن رواية الرازى التى تذكر عمله بنجران واليا عادلا تذكر أن عدله كان سببا في وشاية بعض الناس به إلى الخليفة في العراق<sup>(٢٦)</sup> والجدير بالذكر أن مجموع ما امتحن به الشافعي كان باعثا قويا على أن يتفرغ للعلم وينبغ فيه .

٢٣ - الرازى / مناقب الشافعي / ٣٢ .

٢٤ - أبو زهرة / الشافعي / ٢٣ ، وتاريخ المذاهب / ٢٣٣/٢ .

٢٥ - السابق / ٢٣٤ .

٢٦ - مناقب الشافعي للرازى / ٣٤ .

لعل أشهر ما يتصل بحياة الإمام أحمد محنته أو محنة ، ذلك أنها تصور منهجه وسمت شخصيته العام ، من جهة ، كما تصور كيف يفقد السلطان طريق الحق حين يخضع للفكر الموجه من جهة أخرى ، وقد يعود اشتهاً بمحن الإمام أحمد إلى عوامل عديدة تتداخل لتكون الموقف كله بحدته وغرابته ، فطبيعة الإمام أحمد هادىء زاهد بعيد عن أضواء السلطان عاكف على العلم تعلماً وتعلماً وقد شهد بذلك معاصروه « حدثنا سليمان بن أحمد ثنا أحمد بن القاضى قال : سمعت أبا داود السجستاني يقول : لقيت مائتين من مشايخ العلم فما رأيت مثل أحمد بن حنبل ، لم يكن يخوض فى شىء مما يخوض فيه من أمر الدنيا ، فإذا ذكر العلم تكلم<sup>(٢٧)</sup> »

ورجل سمته هكذا يغرب أن يلتقى به فى أتون الأحداث آنذاك .  
كذلك فإن ما شاع عن المعتزلة الذين سادوا آنذاك كان ترجيحاً لجانب الحرية كما تجلب فى قضية حرية الإنسان أو أفعال العباد ، فالمفترض فى حكم يأخذ بهذا الاتجاه ألا يقسر الناس على رأيه هو دون أن يقبل منهم رأيهم وله دليله - ولو من باب قبول الاجتهاد الذى يجوز على صاحبه الخطأ ، فإذا حدث خلاف هذا بان زيف دعوى الحرية أو منافضتها على الأقل .

● وسط هذه الظروف كانت محنة الإمام أحمد بن حنبل الشهيرة ، التى خرج منها نقى المعدن كالذهب بعد أن يلج النار « حدثنا سليمان بن أحمد ثنا فس بن مسلم البخارى - ببغداد - قال سمعت على بن خنرم يقول سمعت بسر بن الحارث يقول : أدخل أحمد بن حنبل الكير فخرج ذهباً حمراء<sup>(٢٨)</sup> ولا نريد هنا أن نقف طويلاً مع محنة ابن حنبل أو محنة بتفاصيلها التاريخية ، فذلك ليس من هدفنا . وحسبنا أن تنسب إلى بعض الأمور التى توضح ما نقصد إليه من بيان أن مواقف الفقهاء أو محنتهم كانت سبباً رئيساً فى تقديرهم وإعطائهم مكانته اللائقة بهم .

٢٧ - أبو نعيم/الحلية /٩/ ١٦٤ .

٢٨ - السابق/٩/ ١٧٠ .

١ - أن سبب المحنة وهو قول المعتزلة بخلق القرآن لم يكن من باب حاجة الناس في العقائد بقدر ما كان انتصارا لرأى وحبا لغلبة ولو كان ذلك على حساب حرية البحث وحق الأجتهد والفهم ، ودليلنا على ذلك أن هذا القول قال به المعتزلة متسترين حتى إن هارون الرشيد حين علم بأن يشرا المريسى يقول به قال : « بلغنى أن بشرا المريسى زعم أن القرآن مخلوق على إن أظفرنى الله به لأقتلنه قتلة ما فتلتها أحدا قط »<sup>(٢٩)</sup>

وتخفى بشرا حتى مات الرشيد فعاد إلى مقالته ، ولم يثبت أن الناس في عصر الرشيد كانوا أقل عقيدة أو انقص إيمانا .

ب - أن المحنة استمرت من عصر المأمون الذى أضرم نارها لاعتزاله ولا تخاذة أحمد ابن أبى دؤاد المعتزلى صاحب كلمة في هذا الشأن ، وفي عهده امتحن الفقهاء والمحدثون بالقول في خلق القرآن وفرضت عليهم عقوبات أولها إسقاط شهاداتهم عند القضاة وحرمانهم من وظائف الدولة ، وآخرها السجن والتعذيب ، واستمر الحال كذلك بناء على وصية تركها لخلفه المعتصم فكان ما كان وأنكى ، وظل الحال كذلك حتى آخر عهد الواثق الذى يروى أنه تاب عن القول بخلق القرآن وترك امتحان الفقهاء بهذا على أنر مناظرة تمت بحضوره تبين وجه الحق فيها ، ثم جاء المتوكل فأحيا السنة وأمات البدعة<sup>(٣٠)</sup> وأستمرار المحنة هكذا يظهر شراستها ، وخبت الكائدين فيها ، كما يظهر مقدار ما عانى أبى حنبل فيها<sup>(٣١)</sup>

ج - أن المحنة امتحن فيها خلق كثير من العلماء أجاب كثيرون منهم ولم يثبت في نهاية الأمر إلا محمد بن نوح وأحمد بن حنبل ، وقد مات الأول وهما في الطريق إلى المأمون

---

٢٩ - ابن الجوزى / مناقب الامام أحمد/ ٣٨٥ . الطبعة الأولى / ١٣٩٩م ١٩٧٩م نشر الخانجى بمصر تحقيق د . عبدالله التركي ، د . على محمد عمر .

٣٠ - السابق / ٤٣٢ - ٤٣٨ .

٣١ - أبو زهرة/ أحمد بن حنبل/ ٤٦ - ٧٥ . (طبعة دار الفكر العربى د.ت)

الذى مات قبل أن يصله أحمد بن حنبل ، ولئن أجاب بعض العلماء تقية فإن النظر كان يتوجه منهم إلى أحمد بن حنبل بتقدير وإكبار ، إدراكا منهم لكون أحمد قدوة يرتبط به خلق كثيرون .

يروى ابن الجوزى عن أحمد بن حنبل قوله : « ما رأيت أحدا على حدائث سنه ، وقلة علمه ، أقوم بأمر الله من محمد بن نوح ، وإنى لأرجو أن يكون الله قد ختم له بخير ، قال لى ذات يوم وأنا معه خلويين : يا أبا عبدالله ، الله الله ، إنك لست مثلى ، أنت رجل يقتدى بك وقد مد الخلق أعناقهم إليك لما يكون منك ، فاتق الله وأثبت لأمر الله ، أو نحو هذا الكلام ، فعجبت من تقويته لى ، وموعظته إياى ، فانظر بما ختم له ، مرض وصار إلى بعض الطريق فمات ، فصليت عليه ودفنته - أظنه قال : بعانة - قال أحمد بن على ثابت وكانت وفاته سنة ثمان عشرة ومائتين » (٣٢) .

وقد كان أحمد كما فهم عنه قدوة ضرب بالسياط ، وقيد بأكثر من قيد فلم يلن ولم يتراجع عن قوله بأن القرآن كلام الله ليس إلا ، وهذا ما عليه الصحابة والتابعون ، لأنه كان يرى أن الخوض فى هذا الأمر فتح لباب من الشر ما أغنى الأمة عنه .

وحسبك أن تعلم كيف كان الناس يرونه عالم السلف الذى يتحرى الحق ولذا فهم يتبعونه ، تعلم هذا حين تقرأ قال - عبد الله بن أحمد - وكتب أهل المطامير إلى أحمد بن حنبل : إن رجعت عن مقالاتك أرتدنا عن الإسلام (٣٣) « وإن كانت العبارة تشير إلى مبالغة تحتاج إلى نظر .

د - لم تكن محنة أحمد فى مسألة خلق القرآن وإجتيازه إياها بعد تعذيب وسجن طال واختلف ، بل تعرض لمحنة أخرى دبرها أصحاب الأهواء الذين نقموا عليه رضا المتوكل وتقريبه إياه ، فكاد الأعداء له عند المتوكل بأنه أخفى علويا عنده ، وأذهب المتوكل إليه من فتش بيته لكنهم لم يجدوا شيئا مما ذكروا ، وحين لم يجدوا عنده علويا وصحت براءته

٣٢ - ابن الجوزى / مناقب أحمد بن حنبل / ٣٩٣ .

٣٣ - السابق / ٤٩٩ . وأهل المطامير المشتغلون بجمع الأحاديث وروايتها .

عند المتوكل ورد كتاب على بن الجهم : أن أمير المؤمنين قد صح عنده براءتك مما قرفت به ، وقد كان أهل البدع مدوا أعينهم فالحمد لله الذى لم يشمتهم بك ، قد وجه اليك أمير المؤمنين بالخروج [وكان ممنوعا من خروجه من البيت حتى للجمع والجماعات] .  
فأله الله أن تستعفى أو ترد المال « (٢٤)

### الحن ومكانة الفقهاء :

قلت إن مواقفهم لنصرة الحق وفى سبيل الله كانت سببا رئيسيا فيما امتحنوا به ، وقلت إن هذا سبب من أسباب مكانتهم لدى العامة والخاصة ، ونزيد الأمر هنا وضوحا حين نذكر بعض المواقف التى كانت من الناس إبان الحن أو بعدها .

● فأبو حنيفة النعمان قدر الناس فيه العلم والدين والخلق ولم يبالوا بمواقف السلطان معه ، فحين لقى ربه ، شيعت بغداد كلها جنازة فقيه العراق ، ولقد قدر عدد الذين صلوا عليه بخمسين ألفا ، بل يذكر أن أبا جعفر المنصور نفسه صلى على قبره بعد دفنه ، يقول الشيخ أبو زهرة معلقا « ولا ندرى أكان ذلك إقرارا منه بعظمة الخلق والدين وجلال التقى ، أم لإرضاء العامة ، ولعله مزيج من الأمرين ، فقد كان أبو حنيفة عظيما حقا » (٢٥)  
قلت : وعلى أى تفسير يكون أمر المنصور ففيه دلالة على مكانة الرجل وأحقيته بالتقدير .

● أما مالك رضى الله عنه فحسبنا أن نذكر ما يدل على اعتذار المنصور له عما حل به من أذى ، وهو كاف فى الدلالة على ما قصدنا إليه ، يقول الإمام مالك : لما دخلت على أبى جعفر ، وقد عهد إلى أن آتية فى الموسم ، قال لى : والله الذى لا إله إلا هو ما أمرت بالذى كان ، ولا علمته ، إنه لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم ، وإنى أخاك أمانا لهم من عذاب ، ولقد دفع الله بك عنهم سطوة عظيمة ، فإنهم أسرع الناس إلى الفتن ، وقد

---

٣٤ - أبى الجوزى / المناقب / ٤٤٣ .

٣٥ - أبو زهرة / أبو حنيفة / ٥٣ .

أمرت بعد والله أن يؤتى به من المدينة على العراق على قتب ، وأمرت بضيق محبسه ، والاستبلاغ في امتهانه ، ولابد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما نالك منه .

فقلت : عافى الله أمير المؤمنين وأكرم مثواه ، قد عفوت عنه لقربته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقربته منك ، قال : « فعفا الله عنك ووصلك » (٣٦)

● وأما أحمد بن حنبل فإلى جانب ما ذكرنا من مكانته عند العلماء وعند الناس عامة ، وإلى جانب مارواه ابن الجوزي حين لقيه العلماء بعد المحنة تقديرا لموقفه ، وثناء على صبره على الأذى في سبيل الله ، (٣٧) إلى جانب هذا نذكر ما حدث به ميمون بن الأصبع قال : كنت ببغداد ، فسمعت ضجة ، فقلت ما هذا ؟ قالوا أحمد بن حنبل يمتحن . فأتيت منزلي فأخذت مالا له خطر ، فذهب به إلى من يدخلني إلى المجلس ، فإذا بالسيف قد جردت ، وبالرماح قد ركزت . وبالتراس قد نصبت وبالسباط قد طرحت ، فالبسوني قباء أسود ومنطقة وسيفا ، ووقفوني حيث أسمع الكلام ، فأتى أمير المؤمنين فجلس على كرسي . وأتى بأحمد بن حنبل ، فقال له : وقربتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم لأضربنك بالسباط أو تقول كما أقول » (٣٨)

قلت : وهل يحتشد كل هذا الاحتشاد لمجرد رأى يفرض لو لم يكن من يريدون فرضه عليه وحمله على القول به ذا مكانة وأثر ؟ !!

ويتضح هذا المعنى بدقة من الرواية التالية : قال المروزي في محنة أحمد بن حنبل وهو بين الهُبارين يا أستاذ : قال الله تعالى تعالى (ولانقتلوا أنفسكم) (٣٩) فقال أحمد : يامروزي : أخرج انظر أى شىء ترى . قال فخرجت إلى رحبة دار الخليفة فرأيت خلقا من الناس لا يحصى عددهم إلا الله ، والصحف في أيديهم والأقلام والمحابير في أذرعهم ، فقال لهم

٣٦ - أبو زهرة / مالك / ٦٤ .

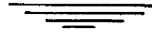
٣٧ - مناقب الأمام أحمد / ٤٢١ .

٣٨ - السابق / ٤٠٩ ، ٤١٠ .

٣٩ - النساء / ٢٩ .

المُرُودى أى شىء تعملون ؟ قالوا ننتظر ما يقول أحمد فنكتبه . قال المُرُودى : مكانكم ، فدخل إلى أحمد بن حنبل وهو قائم بين الهنبارين ، فقال له : رأيت قوما بأيديهم الصحف والأقلام ينتظرون ما تقول فيكتبونه . فقال : يامرودى أضل هؤلاء كلهم ، أقتل نفسى ولا أضل هؤلاء كلهم «<sup>(٤٠)</sup>

وإذا كان للذهبي رأى فى هذه الرواية ولم يثبت محقق كتاب ابن الجوزى رأيه فيها ، فإننا نقول إن رواية مشابهة ذكرها أبو نعيم صاحب الحلية<sup>(٤١)</sup> قد تشهدها ، كما يشهد لها كذلك ما ذكرناه آنفا مما وثقه ابن الجوزى من قول أهل المطامير إلى أحمد بن حنبل : إن رجعت عن مقالتك ارتددنا عن الإسلام «<sup>(٤٢)</sup> قلت : لعل فى هذا ما يغنى عن التفصيل فى باب تكفى فيه الإشارة ، ويغنى فيه الإجمال .



---

٤٠ - المناقب / ٤٠٨ ، ٤٠٩ .

٤١ - الحلية / ٢٠٤/٩ .

٤٢ - المناقب / ٤١٩ .



## ثانيا : تواجدهم الفكرى بين تيارات العصر .

شهد العصر الأموى والعصر العباسى الأول تيارات فكرية انبثقت من ظروف مختلفة - نعالجها فيما بعد - ووسط التيارات كان الفقهاء حريصين على تنقية الجو الفكري مما يفسد عقائد الناس أو يبعدهم عن منهج السلف الصالح في فهم الإسلام عقيدة وسلوكا .

ومبعث حرصهم - فيما نفهم - فهمهم لرسالة العالم المسلم تعليا للناس وتوجيها لحياتهم وفق ما أتى به الوحى فى أيسر أسلوب ، وبواقعية لا يؤدى بها الترف الفكرى إلى تجاهل الواقع ، ويؤكد هذا ارتباط الناس بهم وثقتهم فيهم إذ هم الفئة الوحيدة التى أخذت أسماها من لفظ قرآنى هو مادة فقه ، كما أنهم الفئة التى يتسع مفهوم الفقه عندها ليشمل كل مناحى الحياة . وقد أدى بالفقهاء موقفهم هذا إلى إحتكاك بأبرز تيارات العصر وهما : الفرق الكلامية وعلى رأسها المعتزلة ، ثم الصوفية .

### ١ - الفقهاء والمعتزلة :

كان أبرز صراع شهده العصر هو موقف الفقهاء والمحدثين من المعتزلة دون أن يعنى ذلك تفضيا عن الفرق الأخرى كالشيعية الغلاة والخوارج والجهمية ، ذلك أن المعتزلة مثلوا من وجهة نظر الفقهاء - الموجة التى أقلق حياة الناس فى السياسة وغيرها ، كما أنهم - أى المعتزلة - هم أبرز من توجه إلى الفقهاء بالتجريح بل والكيد الواصل حد الأنتار كما ظهر فى حنة ابن حنبل الأمر الذى جعل الفقهاء - كما يقول الشيخ أبو زهرة - يشنون غارة على المعتزلة « وإنك لترى فى مجادلات الفقهاء ومحاوراتهم تشنعا على المعتزلة كلما لاحت لهم بارقة ، وإذا سمعت أبا يوسف ومحمدا والشافعى وابن حنبل وغيرهم يذمون علم الكلام ومن يأخذ العلم على طريقة المتكلمين فإنما المعتزلة أرادوا بدمهم ، وطريقتهم أرادوا بتزييفهم<sup>(٤٣)</sup> »

أما أسباب هذا العداء فتظهر غيرة الفقهاء وتحرقهم من أجل المسلمين ، ذلك أن المعتزلة

---

٤٣ - أبو زهرة / أبو حنيفة / ١٥٢ .

خالفوا منهج السلف الصالح في فهم عقائد الدين الحنيف ، حيث كان القرآن عند السلف هو المورد والملجأ ، ينطلقون منه ويحتكمون إليه في حدود فهمهم للغة وأصول الاستنباط في ضوء بيان السنة الشريفة لما يحتاج إلى بيان أو تفصيل ، فإذا جاء المعتزلة بادئين من العقل ، جاعلين إياه أساس بحوثهم في العقائد خاصة ، كان هذا صدمة للفقهاء تستأهل الهجوم على المعتزلة حرصا على سلامة الفكر الإسلامى قبل كل شئ .

ولم يكن انتقاد الفقهاء لمنهج المعتزلة منبعثا من تقليل لشأن العقل إذ الفقهاء يدركون قيمته وأهميته ، ولكنهم - أى الفقهاء - انتقدوا المغالاة في قيمة آلة تتأثر بالجسم صحة ومرضا ، وغضبا ورضا ، وتخدع عن طريق الحواس التى لا منفذ لها سواها ، كما أنها آلة تتسم بالمحدودية من جراء هذا وغيره مما هو في بابه .

- فإذا أضفنا إلى هذا تهجم المعتزلة على رجال في الأمة لهم مكانتهم ، ولم ينزهوا خصوصتهم عن الإسفاف كان لنا أن ندرك حرص الفقهاء على تتبع المعتزلة وبيان فساد منهجهم .
  - كذلك وجد الفقهاء أن المعتزلة هم الملجأ الأمن لكثير من المنحرفين كابن الراوندى وغيره ، ممن اتهموا بأنهم أحدثوا في الإسلام أحداثا ، وهم وإن تبرأ منهم المعتزلة أخيرا فإنهم في البداية إنطلقوا من حضن المعتزلة مستمتعين بما سمي الحرية العقلية .
- كذلك كان لمناصرة الخلفاء للمعتزلة وسماحهم حتى في الخطأ أثره في تجريد الفقهاء ألسنتهم ضد المعتزلة ، الأمر الذى أدى بحمد بن الحسن الشيبانى إلى أن يفتى أن من يصلى خلف معتزلى عليه أن يعيد صلاته ، ويرد مالك شهادتهم ، وليس موقفهم عند الشافعى وأحمد بأحسن من ذلك<sup>(٤٤)</sup> . وهكذا كان تواجد الفقهاء في مقابل التيار الأعترالى مسوغا من حيث فهمهم لرسالة العالم المسلم .

### الفقهاء والصوفية :

عرف مصطلح التصوف في بداية القرن الثالث الهجرى ، وأخذ الزهد شكلا جماعيا بعد

---

٤٤ - أبو زهرة / الشافعى / ١٢٦ ، وأحمد بن حنبل / ١٢٧ . ، تاريخ المذاهب الاسلامية / ١ / ١٥٢ .

أن كان فردى المظهر ، وذلك لظروف العصر العباسى ومافشا فيه من ترف وبذخ ، إلى جانب العوامل الأخرى<sup>(٤٥)</sup> . وترتب على هذا أن ظهرت مجالس للصوفية يجلس فيها الشيخ إلى طلابه يعلمهم أداب الطريق وحقيقة التصوف ودور الشخصية الصوفية ، وكانت هذه المجالس قسيمة مجالس الفقهاء فى التفاف الناس حولها الأمر الذى أوجد احتكاكا بين الفقهاء وبين الشيوخ الصوفية . ولاشك أن الإقبال على الفقه كان أكثر وأقدم إذا صار لدى الناس فهم يقترب من أن الاشتغال بهذا العلم هو غاية الدين<sup>(٤٦)</sup> .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية تواجد الصوفية إلى جوار الفقهاء كل يجتهد فى باب حين قزر ، « أن الأمور الصوفية التى فيها زيادة فى العبادة والأحوال خرجت من البصرة ، فافترق الناس فى أمر هؤلاء الذين زادوا فى أحوال الزهد والورع والعبادة على ما عرف من حال الصحابة ، فقوم يذمونهم وينقصونهم ، وقوم يجعلون هذا الطريق أكمل الطرق وأعلاها ، . . . والتحقيق أنهم فى هذه العبادات والأحوال مجتهدون كما كان جيرانهم من أهل الكوفة مجتهدين فى مسائل القضاء والإمامة ونحو ذلك<sup>(٤٧)</sup> .

وقد كان لهذا التجاور - مع اختلاف المنحى - أثر فيما كان بين الفقهاء والصوفية ، فقد خشى الفقهاء على العقيدة من لين ، وعلى العبادة من مبالغة ، وعلى الحياة من هجران لو أخذ الناس بفهم الصوفية للأمور ، وإن كان للصوفية كلام ردوا به على الفقهاء .

وبعيدا عن الحكم فى أمر الخصومة بين الطائفتين فإن المقرر أن الفقهاء لم يألوا جهدا فى محاربة هذا الاتجاه إلى حد أن سبق كثير من الصوفية إلى المحاكمة بتهمة الكفر والزندقة ، وقد ظهر إضطهاد الفقهاء للصوفية على أشد ما يكون قسوة ، فيما عرف بمحنة الصوفية فى بغداد ، أو محنة غلام الخليل ، وهى المحنة التى فر على إثرها أبو سعيد الخراز إلى مصر ، واتهم فيها نحو سبعين صوفيا بالزندقة والإلحاد من بينهم الجنيد والنورى ، وحكم عليهم

---

٤٥ - أبو اليزيد العجمى / الوجهة الأخلاقية للتصوف الإسلامى / ٥ - ١٣ - (رسالة ماجستير ١٩٧٧ دار العلوم)

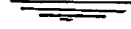
٤٦ - أبو العلا عفيفى / التصوف الثورة الروحية فى الإسلام . ١١١ ، ١١٢ (طبعة ١٩٦٣ مصر)

٤٧ - ابن تيمية / رسالة الصوفية والفقهاء / ١٥ نشر القاهرة (د . ت) ٤٠ دائرة المعارف الإسلامية تعليق الشيخ مصطفى عبد الرازق .

بالإعدام لكن الصوفية دافعوا عن أنفسهم وأفرج عنهم<sup>(٤٨)</sup> .

وجدير بالذكر أن الفقهاء لم يكونوا ناقلين على كل الصوفية ، لكنهم مع هذا خافوا على الناس من نتائج المغالاة في هذا الاتجاه ، حتى ولو كان هناك معتدلون بين هذه الطائفة ، ولعل موقف الإمام أحمد من الحارث المحاسبي مؤثر على صحة ما ذهبنا إليه ، فقد روى ابن الجوزي أن الإمام أحمد سمع الحارث المحاسبي في مجلسه ، سمعه متخفيا فبكى من شدة تأثيره عليه ، ولكنه حين سئل « كيف رأيت هؤلاء يا أبا عبدالله ؟ فقال : ما أعلم أنى رأيت مثل هؤلاء القوم ، ولا سمعت في علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل ، وعلى ما وصفتُ من أحوالهم فلا أرى لك صحبتهم ، ثم قام وخرج »<sup>(٤٩)</sup> .

على أية حال ، فد كان الفقهاء متواجدين على الساحة الفكرية يقيمون التوازن بين العقليين (المعتزلة) والذوقيين (الصوفية) حرصا منهم على المنهج الواقعي العملي في فهم العقائد ومعرفة الحلال من الحرام ، وكان هذا الدور قاضيا بعلو منزلتهم حتى لدى الذين امتحنوهم من الخلفاء والأمراء .



---

٤٨ - أحمد أمين/ظهر الاسلام/٧٦/٢ . القسيري رسالة ٥٠٣/٢ .

٤٩ - ابن الجوزي /مناقب الامام أحمد بن حنبل/ ٢٤٠ .

### ثالثا : تراث الفقهاء

سبب ثالث خلد مكانتهم وجعلهم موضع عناية الدارسين والشراح قديما وحديثا ، إنه التراث العلمى الذى تركوه للمكتبة الإسلامية على تنوع تخصصاتها وتعدد فروعها .

ولانريد هنا أن نستقصى ففى كتب التراجم وكتب الفهارس وتاريخ العلوم الغناء • وحسبنا أن نذكر بعض مؤلفات الفقهاء فى غير مجال الفقه .  
فلالإمام أبى حنيفة كتب فى العقائد على منهج السلف ، كما أن له فى الحديث مسانيد وآثار . فله « العالم والمتعلم » ورسالة إلى عثمان البتى ( ١٤٣هـ ) ، ثم الفقه الأيسر<sup>(٥٠)</sup> .

وله كذلك « الفقه الأكبر » الذى شرحه أبو المنصور الماترىدى ، كما شرحه أحمد بن محمد المغنيساوى<sup>(٥١)</sup> وله كذلك « وصية الإمام أبى حنيفة إلى أصحابه حين مرض بلزوم طريق أهل السنة والجماعة »<sup>(٥٢)</sup> وللإمام كذلك فى الحديث مسانيد التى جمعت فى جزءين على يد قاضى القضاة أبى المؤيد محمد بن محمود الخوارزمى (توفى ٦٦٥هـ)<sup>(٥٣)</sup> .

فإذا أضفنا إلى ذلك أثر أبى حنيفة فى أبى جعفر الطحاوى (٣٢١هـ) الذى قدم للمسلمين عقيدة السلف كما نقلها - من خلال ما وصلنا وربما من غيره مما لم يصلنا - من تارث أبى حنيفة<sup>(٥٤)</sup> ، أقول بإضافة هذا يتبين لنا أن أبا حنيفة ترك تراثا علميا فى غير مجال الفقه بالمعنى الإصطلاحي ، وإن كان داخل دائرة الفقه بالمعنى القرآنى العام . وقد كان هذا سببا فى إكباره - وتقديره .

● ونفس الشئ نجده عند مالك فى الموطأ الذى جمع الحديث إلى الفقه دون أن تخلو كتب

---

٥٠ - جمعت هذه الثلاث فى مجلد تحقيق الاستاذ محمد زاهد الكوثرى / مطبعة الأنوار بالقاهرة/١٣٦٨هـ

٥١ - طبع المطبعة السعادة بمصر/١٣٢٥ .

٥٢ - مخطوط بدار الكتب المصرية/٢١٣ مجاميع

٥٣ - طبعت بالمهند حيدر آباد /١٣٣٢ هـ .

٥٤ - شرح العقيدة الطحاوية للعلامة ابن ابى العز الحنفى /٦٩ نشر المكتب الاسلامى (الطبعة الرابعة/١٣٩١هـ)

التراجم من آراء مالك في العقيدة<sup>(٥٥)</sup> وإن كان لم يصلنا كتاب مستقل للإمام مالك في هذا الشأن

● ولإمام الشافعي سبق الكتابة في مناهج البحث ، في رسالته التي أثنى عليها علماء عصره ، كما كانت لمن بعدهم معلما على طريق تأصيل البحث الإسلامي ، كذلك فإن للشافعي مسندا في الحديث<sup>(٥٦)</sup> ، لكن ذلك لم يحرمانا من آراء له في العقيدة وصلتنا من خلال الرواية<sup>(٥٧)</sup> وكتابه الفقه الأكبر .

وأما الإمام أحمد فلم يصلنا عنه كتاب مستقل في العقائد سوى الرد على الجهمية ، لكن علماء الأمة وعوا لنا هذا الجانب عن طريق الرواية<sup>(٥٨)</sup> وأما مسند الإمام أحمد فأشتهر من أن يوضح قدره بين التراث الإسلامي ، وإذا كان لنا أن نعتبر الفقهاء بعد الأئمة الأربعة إمتدادا لفكرهم ومنهجهم في العقائد وغيرها ، فإن الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ) في الملل والنحل ، وابن حزم (ت ٤٥٦هـ) في الفصل ، وابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل ، وغيرهم يعتبرون إضافة علمية تتصل بسبب ما ب مدرسة الفقه الأولى المتمثلة في الأئمة الأربعة ومن عاصرهم ، وكتابات الفقهاء في مجال الأخلاق منهج يستحق الدراسة والتأمل<sup>(٥٩)</sup> .

ونخلص من هذا إلى نتيجة مؤداها أن هؤلاء الفقهاء لم يستغرقهم الاحتكاك مع المتعلمين ولا مع الصوفية ، إلى الحد الذي يقعد بهم عن مواصلة بحوثهم ودراساتهم في علوم أخرى قد يظن أنها خارج اهتمامهم في مجال إستنباط الأحكام ، وإن كان كما نؤكد دائما هي وثيقة الصلة بالفقه بالمعنى القرآني الشامل لكل فهم يخدم قضية الإسلام الرسالة الجامعة .

٥٥ - انظر /الحلية/ ٦/ ٣٢٧ وما بعدها ، ومناقب الشافعي/ ١٩٥ .

٥٦ - الرسالة /تحقيق أحمد محمد شاكر طبعت في مصر الحلبي ١٣٥٨ هـ / ١٩٤٠ م ومسند الامام الشافعي/ شركة المطبوعات العلمية/ ١٣٦٧ هـ

٥٧ - انظر /الرازي (٣٢٧هـ) آداب الشافعي ومناقب / ١٨٢ - ١٩٣ .

٥٨ - ابن الجوزي /مناقب أحمد/ ٢٠١ - ٢٢٩ . تحقيق د . عبد الله التركي . ، والمدخل إلى مذهب الامام أحمد /ابن بدران الدمشقي / ٨١/ تحقيق د . عبدالله التركي

٥٩ - تذكر آلماوردي في ادب الدنيا والدين ، وابن حزم في الأخلاق والسير في مداواة النفوس ، والغزالي في الاحياء وابن القيم في مدارج السالكين .

وإذا كان ما ذكرنا - وقد يضاف إليه غيره - هو أسباب مكانتهم عند العامة والخاصة فإن لهذه المكانة مظاهر نلمسها في البحث التالي إن شاء الله .

### مظهر مكانة الفقهاء في الفكر الإسلامي :

يلتقى البحث عن الشخصية الخلقية للعالم المسلم بعدد من الأوصاف تضمنتها كتب الأخلاق بين مباحثها ، بل إن بعض العلماء أفرد هذا الأمر ببحث مستقل<sup>(٦٠)</sup> وهذه الأوصاف أو المقومات لشخصية العالم المسلم تنطبق بالدرجة الأولى على الفقهاء ، بل لا تغالي إذا قلنا أنه إذا أطلقت كلمة العالم أنصرفت إلى الفقيه عند العلماء وعند العامة ، فأما عند العلماء فيتضح من فهمهم لمراتب العلم ودرجات المشغولين به - كما سيجيء إن شاء الله - وأما عند العامة فلأن الفقهاء هم الفئة القريبة منهم ومن قضاياهم ، كما أنهم شرفوا بحمل اسم أخذ من مادة قرآنية بما تقتضيه من فهم وفطنة وإستيعاب<sup>(٦١)</sup> .

● أما عن هذه الأوصاف فنذكر منها قول الحنبيد البغدادى (٢٩٨هـ) : « إذا قال نطق بقوة العلم ، وإذا سكت سكت بوقار الحلم ، وإذا قصد إلى البيان قرب منال الفهم ، إذا كثروا [أى الناس] عليه أحب نفعتهم ، وإذا تفرقوا عنه نصحتهم ، يؤدى إليهم ما حمل من العلم بلسان فصيح ، وبيان صحيح ، بقلب نصوح وصادق ، لا يعجل على من جهل ، ولا يكافئ من زل أو أخطأ ، ولا يوافق بالمرءاة أحد ، يعفو عن ظلمه ، ويعطى من حرمه ، ويحسن إلى من أساء إليه ، ويتجاوز عن يتعدى عليه ، لا يريد على شئ من أعماله من الخلق أجرا ، ولا يميل إلى مدحة ولا ثناء . بجتهده في إخلاص أعماله ، ويريد وجهه بجميل فعاله<sup>(٦٢)</sup> »

ولم تكن هذه الأوصاف إلا استقاء من شخصيات الفقهاء كما يتضح من تاريخهم

٦٠ - مثل أبو بكر الأجرى في كتابه أخلاق العلماء ، ومثل ابن جماعة في كتابه : تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتكلم .

٦١ - انظر د . محمد النرفاوى وسائل الإدراك في القرآن الكريم ! ١٥ عالم الكتب/الرياض ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م

٦٢ - الجنيد البغدادى / رسائل الجنيد/ ٢١ حررها د . على حسن عبد القادر

وأثارهم ، وقد تكلم كثير من العلماء<sup>(٦٣)</sup> فى هذا الباب إحياء لمعالم شخصية العالم كما تحققت فى الأئمة الفقهاء وإدراكا منهم أن الناس بحاجة ماسة إلى هذا الصنف من العلماء « عالم رقيق ، ومؤدب ناصح شفيق .. ذلك لأن الله أعطى لأهل العلم فهما ، وأخذ عليهم ميثاقه ألا يكتموا علمهم عن الناس ، بل يبينونه وينشرونه<sup>(٦٤)</sup> » .

● وأما عن إنطباق هذه الأوصاف على الفقهاء أولا فذلك مرتبط بالعلم الذى أخذوا إسمهم منه ، ومكانته بين العلوم الشرعية بل العلوم على وجه العموم « والعلوم عند جميع أهل الديانات ثلاثة : علم أعلى ، وعلم أسفل ، وعلم أوسط ، فالعلم الأعلى عندهم هو علم الدين الذى لايجوز لأحد الكلام فيه بغير ما أنزله الله فى كتبه ، وعلى السنة أنبيائه صلوات الله عليهم نصا ، والعلم الأوسط هو معرفة علوم الدنيا ، التى يكون معرفة الشئ منها بمعرفة نظيره ، ويستدل عليه بجنسه ونوعه كعلم الطب والهندسة . والعلم الأسفل هو أحكام الصناعات وضروب الأعمال مثل السباحة والفروسية والزى والخط ، وما أشبه ذلك من الأعمال التى هى أكثر من أن يجمعها كتاب أو يأتى عليها وصف<sup>(٦٥)</sup> .

وليس الأمر مجرد تقسيم للعلوم ومراتبها بقدر ما هو فهم مستند إلى نص إسلامى ، إذ هناك روايات الأحاديث تعضد هذا الفهم إلى حد كبير ، فمن طرق عدة روى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا عبدالله بن مسعود ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : أتدرى أى الناس أفضل ؟ قلت الله ورسوله أعلم . قال فإن أفضل الناس أفضلهم عملا إذا فقهوا فى دينهم . قال : يا عبد الله بن مسعود . قلت لبيك يا رسول الله . قال : أتدرى أى الناس أعلم ؟ قلت الله ورسوله أعلم قال : أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس ، وإن كان مقصرا فى عمله ، وإن كان يزحف على إسته » قال أبو يوسف وهذه صفة الفقهاء<sup>(٦٦)</sup> وإذا كان أبو يوسف قد حدد أن هذه صفة الفقهاء وهو

٦٣ - الراغب الأصفهاني / الذريعة إلى مكارم الشريعة / دار الكتب العلمية / ١٤٠١ ، ١٩٨١ م .

٦٤ - رسائل الجنيد / ٢٨ .

٦٥ - ابن عبد البر (يوسف) / جامع بيان العلم وفضله / ٣٧/٢ . دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

٦٦ - السابق / ٤٣/٢ .



فقيه فإن على بن أبي طالب كرم الله وجهه قد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :  
ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه ؟ قالوا بلى ، قال من لم يقتط الناس من رحمة الله ،  
ولم يؤيسهم من روح الله ، ولم يؤمنهم من مكر الله ، لا يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه ،  
ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه ، ولا علم ليس فيه تفهم ، ولا قراءة ليس فيها تدبر .

قال أبو عمر لا يأتي هذا الحديث مرفوعا إلا من هذا الوجه ، وأكثرهم يوقفونه على  
على<sup>(٦٧)</sup> . ولعل الأحاديث التي صرحت بمكانة الفقيه وخطره على الشيطان تقوى المعنى  
المشار إليه ، فمنها ما روى مجاهد عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد «<sup>(٦٨)</sup>

ومنها ما يروية عطاء بن يسار عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لكل شيء  
عماد وعماد هذا الدين الفقه ، وما عبد الله بشيء أفضل من فقه في الدين ، ولفقيه واحد أشد  
على الشيطان من ألف عابد<sup>(٦٩)</sup> .

ولعل هذه النصوص وغيرها مما هو في بابها هي التي قضت بفهمنا أن الحديث عن  
شخصية العالم المسلم إنما تنصب على الفقهاء ، ونضيف أن الفقه هنا - كما وضع من  
إستخدام المادة في الأحاديث والآثار - يعنى دائرة أوسع من علم الفقه ، بل يتسع ليشمل كل  
ما يقرب الناس من ساحة العمل ويبعدهم عن الإغراق في تيار الجدل ، ويتجلى هذا المنحى  
أكثر ما يتجلى في أبواب العقيدة والسلوك وفق منهج الصحابة رضوان الله عليهم في هذا  
الصدد على أن ظهور مكانة الفقهاء في الفكر الإسلامى ليس مبعثه شرف العلم ولا وجود  
نصوص تشهد لهم بهذا فحسب بل كانت المكانة الإجتماعية للفقهاء عاملا هاما في ظهور  
مكانتهم في الفكر الإسلامى إذ بدت منها خطورة تأثيرهم في الحياة العامة وإن كان هذا شديد  
الصلة - كما ألمحنا قبلا - بمدارستهم لمهتهم العلمية والتعليمية وهي ما هي إرتباطا بالواقع  
المعاش .

٦٧ - ابن عبد البر / جامع بيان العلم / ٤٤ / ٢ ، ٤٥ .

٦٨ - أخرجه الترمذى وابن ماجه ، والبيهقى من رواية دوح بن جناح تفرد به عن مجاهد عنه .

٦٩ - جامع بيان العلم / ٢٦ / ١ .

● والنظر في مواقف الخلفاء مع الفقهاء يلمح أنه ليس مصادفة أن يهتم الخلفاء بأن يلى الفقهاء لهم أعمالاً ، بل ويطمحون إلى أن يحدث التوافق في الرأي بينهم وبين الفقهاء حتى ولو كان ذلك بطريق القسر الواصل حد الحبس وإلا يذاء . وما ذلك إلا رغبة منهم في إضفاء الصفة الشرعية على تصرفاتهم من خلال صمت الفقهاء - إذا عملوا لهم - عن نقدها إن كانت تستحق ذلك ، كما أن في ذلك إرضاء للعامة الذين يرتبطون بالفقهاء إرتباطاً وثيقاً ، ولعل هذا الفهم من الخلفاء والأمراء ، وهذه المكانة ذات الأثر الفعال للفقهاء ، هما اللذان حديا بالخلفاء وولاتهم إلى محاولة إستخدام الفقهاء أو جذبهم عن طريق العطايا كما حدث مع أبى حنيفة حين حاول ابن هبيرة أن يجعل الخاتم في يده ، فأبى أبو حنيفة بعذر شرعى ، وحين حاول المنصور أن يقبل قضاء القضاة ، وحين حاول أن يسترضيه بالعطاء فرفضه<sup>(٧٠)</sup> وكذلك حاول الخلفاء والأمراء التبرؤ من إضطهاد الفقهاء ترضية للعامة كما يترجح لدينا فأبو جعفر المنصور هو الذى كان وراء كل أذى أصاب أبا حنيفة ولكنه بعد أن يموت الإمام الأعظم ويرى بغداد كلها وهى تشيع عالما عرفته ديناً ملتزماً ، يصلى عليه أبو جعفر المنصور بعد دفنه<sup>(٧١)</sup> . وأبو جعفر المنصور هو الذى اعتذر للإمام مالك عما حدث له من أذى ، معللاً ذلك بأنه لم يأمر بهذا ولم يعلمه<sup>(٧٢)</sup> .

واحتشاد بغداد في دار سلطانها يوم أن كان ابن حنبل يمتحن<sup>(٧٣)</sup> شاهد صدق على مدى حب الناس للفقهاء - وهو حب حقيقى ومسوغ - وشدة تأثير الفقهاء على الحياة آنذاك . وهكذا اجتمع للفقهاء حب أهل العلم تقديراً لإسهامهم في الحياة الفكرية على تعدد فروعها ، وحب الناس البسطاء الذين يلمسون بحسهم حذب الفقهاء على ما ينفع الناس وبخاصة أن جو الفرق ، وتيارات المذاهب الأخرى كانت تملأ الدنيا جدلاً وحجاجاً . مما قد لا يفهمه العامة من جهة ، كما أنهم لا يلمسون منه فائدة لهم من جهة أخرى .

٧٠ - أبو زهرة / أبو حنيفة / ٢٥ - ٤٩ .

٧١ - السابق / ٥٣ ، ٥٤ .

٧٢ - أبو زهرة / مالك / ٦٤ .

٧٣ - ابن الجوزى / مناقب الامام أحمد / ٤٢١ ، أبو نعيم / الحلية / ٢٠٤ / ٩ .

## خاتمة

لقد كان الأئمة الأربعة ذوى أثر نافذ فى كثير من العلماء بعد عصورهم ، وقد عرض هذا الاقتداء العلماء المتأخرين للمحن والأذى ، لكنهم لم يستسلموا الواقع الأمة الإسلامية إياك ضعفها ، بل كان إصرارهم على أداء ما أنيط بهم باعثا على يقظة أمتد خيرها إلى ما بعدهم من قرون ، وحسبنا أن تذكر انتقاد ابن الجوزى<sup>(٧٤)</sup> فى القرن السادس للواقع الإسلامى فى مختلف مجالاته ، كما نذكر شيخ الإسلام ابن تيمية<sup>(٧٥)</sup> وما أصاب من محن وما أحدثه من حركة ووعى اضطلعا بإعادة المسلمين إلى الفهم الصحيح الذى وضع أسسه الأئمة الأربعة ، وكذلك تذكر العز بن عبد السلام<sup>(٧٦)</sup> ومواقفه فى نصرة الحق الذى أغضب أمراء المماليك حين أفتى ربيعهم وإعادة أئمتهم إلى بيت مال المسلمين ، ولأن جذور هذا الفهم كان عند الأئمة الأربعة اقتصرنا عليهم مدركين أن الحديث عمن يمثلون الإمتداد لهم مطلب علمى نرجو أن نمحض له بحثا آخر .

---

٧٤ - انظر /تلييس أبليس

٧٥ - انظر تاريخ المذاهب الإسلامية /٤٠٦/٢ .

٧٦ - انظر د . عبدالله الوهيبى /العز بن عبد السلام/ ٦٣ .